كبرها صحائف مطوية :

لمساجد الجامعة

وأثرها في حياة المسلمين وتربيتهم الدينية

للأستاذ أحمد رمزي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

فكرة تربية المسجد تعاودني من وقت إلى آخر . ادث الزمن تمر عليّ فلا أشعر بمرورها . لقد قضيتُ ات العمر وأزهرها مغترباً عن بلادي ، مشرّقاً حيناً يانا ، وأطلقت العنان لنفسي أقرأ وأستمع وأبحث ، لحركات الشعبية وتأثيرها ، وأتصل بأصناف مختلفة من لمس عن قرب تطور العالم وتمخضه بالحركات الفكرية

لت الشعلة إلى باريس ، وسطعت في العروة الوثقى ، تها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما رة في ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ار المقرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الامبراطورية إلى عشر تولاها أمراء عثمانيون ، زوى عبد الحميد ما بين عينيه ؛ طف الجواب للحكيم الشجاع ، وظل على إكرامه ربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ أجله المقدور !

كذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً في العلم والحرية والشورى .

أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، وأينما رحل روش واضطربت القيود !

الله ذكرى هذا الإمام العظيم ، وأجزل له ثواب لمخلصين في جنات النعيم !

الحرمين والزيات

الكبرى ، ومع ذلك كانت تلازمني فكرة حمد الله صبحي عن تربية المسجد وأثرها في حياة المسلم .

وأجتهد أن أصل إلى تكييفها وفهمها لإيجاد طريقة أو منهج لتحقيقها . وكان أشد ما يقابلني من المصاعب ، ويصدني عنها هو مناقضتها بمنطق يستند على أنها بعيدة عن الإسلام وأنها تقليد للمذاهب والأديان الأخرى ، وفي ذلك هدم للفكرة وإخراج لها من حيز المقبول إلى حيز التحريم والإنكار .

ففي يوم من أيام إقامتي بسوريا ولبنان مدة هذه الحرب اتجهت نية بعض الاخوان إلى زيارة الحصون والقلاع التي تركتها الحروب الصليبية . فلما زرناها وقفنا دهشين لأن ما نقش على الحجارة ينطق بفتحها على يد ملوك مصر أمثال بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل ، فبدأت أشعر شعوراً جديداً ، بعظمة مصر الإسلامية العربية وأثرها في العالم العربي ، وحنقت على وزارة المعارف التي أهملت هذه الناحية فلم تلقني شيئاً عن تاريخ بلادي في معاهدها سوى أنها انتقصت من قدر ملوك الإسلام الذين تولوا الحكم فيها ، فلم تكشف لي عن صفحة مجد واحدة تحبب إليّ ذلك العصر المملوء بالفتوح والحروب والمعارك والانتصارات التي منّ الله بها على جند مصر العربية الاسلامية وملوكها ، ومكنتهم من هذه الحصون التي وقفت تقارع الزمن حتى مهد الله فتحها على أيديهم بعد أن عجز غيرهم عنها ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وكان أن أخذت نفسي بقراءة المراجع كما كتبها المعاصرون لتلك الحوادث ، فهداني الله إلى حقائق كانت مغلقة علي ، إذ عرفت أهمية المساجد الجامعة وأثرها في تاريخ المسلمين ، وكيف أسند ملوك الإسلام وظائف الإمامة والخطابة للقضاة وكبار العلماء من مشايخ الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، وكيف أرصدوا الأوقاف والأموال والخيرات والنعم الوافرة على مساجد الله . فأين ذهب كل هذا ؟

ولم تتلق شيئاً عن هذه المساجد وتاريخها ما يدفعنا لزيارتها والتحدث عنها كجزء متمم لتاريخنا وشخصيتنا ولكن هذا النقص تكفلت به كتب التاريخ والتراجم والأدب .

فقرأنا في صبح الأعشى الكثير من الوظائف الدينية

ودرجاتها وأهميتها ، فمن ذلك صورة تقليدين لشيخة الشيوخ أحدهما للخانقاه الصلاحية « سعيد السعدا » من إنشاء المقر الشهابى ابن فضل الله العمرى ، والثانى لشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس من إنشاء السيد الشريف شمس الدين ، وكلاهما تحفة من تحف الأدب الديوانى ، ودليل على العناية والاهتمام بمراكز الدين وأهمية الإمامة والخطابة بالمساجد فى صميم الدولة الإسلامية .

فبالله عليك ماذا يكون موقفنا لو أبقى الزمن على محفوظات ملوك الاسلام بمصر بأكملها ؟ وإنه لشىء عظيم يدل على أن المساجد الكبرى مثل جامع عمرو وابن طولون والجامع الأزهر بعد ذلك وجامع الحاكم والسلطان حسن وجامع الملك الظاهر ، وجامع القلعة ، كان يتولاها أكبر علماء العصر . ولو شئنا أن نؤرخ لكل منها وأن نصف ما مرّ من العزّ عليها ، لاحتجنا كتاباً لكل منها .

إذا تقرر ذلك ، فما الذى يمنع أن يردّ اعتبار هذه المساجد إليها ؟ فتسند وظائف الخطابة والإمامة إلى أكبر علماء الدين وأعلامهم قدراً ، وأكثرهم غيرة على الدين ، مثل فضيلة الأستاذ الأكبر ، ومفتى الديار المصرية ، وقاضى القضاة وهو اسم تاريخى ما أجمل وقعه لو أطلق على رئيس المحكمة العليا الشرعية ، وإلى غيرهم من هيئة كبار العلماء وأساطين الشريعة السمحاء ، وأن يقلدوا هذه الوظائف بمراسيم عالية تصدر بالألقاب التى كانت تستعمل فى العهود الاسلامية .

فجامع عمرو بن العاص متى يتولى الإمامة فيه شيخ من فطاحل شيوخ الاسلام من ذوى المراكز العالية والمراتب الكبرى ؟ فيضع بطاقته مفتخراً بأنه إمام جامع عمرو وخطيبه قبل وظيفته الرسمية العالية ، حينئذ يأتى الكبراء إليه ويزدحم المسجد العتيق بجماهير المصلين ليؤدى لهم بحق رسالة الاسلام .

أما جامع ابن طولون فمتى يعود لسابق عهده ، فمتى تعلق ستائره وتفرش أرضيته بالأبسطة والطنافس ومتى تعود أيامه وتوقد القناديل فيه ؟ إنهم يرونه أثراً من آثار الجاهلية الأولى كمابد الكرنك وإدفو ، وأراه دعامة من دعائم الاسلام فى هذا البلد المسلم . إنه ينتظر عالماً كبيراً بمنزلة القاضى بكار ، يرج بصوته الجمهورى أركانه ويدعو فيه إلى ذكر الله ويعلم الناس ف أروقته الكتاب والدين والتقوى . وإذا سألتنى ومن يأتى إليه أجبتك إن شخصية الامام العامل العالم تكفل لك أن تنقل المسج الجامع من معبد أثرى إلى بيت من بيوت الله ، حينئذ يؤم الألوف لسماع ذلك النداء الخالص الذى يدعو إلى الرسالة المحمدية

وإذا ذهبت إلى حىّ العباسية مخترقاً الظاهر قابلك الجام الظاهرى ، مفخرة العمارة الاسلامية فى العصور الوسطى . لو كا ملكا لشعب من أصغر شعوب الأرض لما قبل أن يتركه على هذ الحالة . بالله هل سمعتم أن كاتدرائية ريمس حينما هدمتها الحرب الأولى أو كاتدرائية وستمنستر حينما هدمتها الحرب الثانية ، اتخ الناس أرض الأولى متنزها والثانية مرتعاً ؟ أما فى مصر فقد انفردنا بهذا الفتح إذ جعلنا الجامع الظاهرى الذى بناه أعظ ملوك الإسلام متنزهاً فى حى أشعر أنه بحاجة لمسجد جامع يؤم الناس . إن أهل العباسية فى مجيئهم من محطة باب الحديد إل مساكنهم ، لا يشعرون بشىء من الخجل حينما يرون المعابد العالي التى يقوم بالإنفاق عليها أفراد من مختلف الطوائف ، وأ مسجدهم لعظيم يتخذ متنزهاً ؟

حينما أعادت فرنسا كاتدرائية ريمس ، توالت عليها التبرعا من جميع أنحاء الأرض ، ولو رغبت وزارة الأوقاف فى إعادة جام الظاهر أظن أن الكثيرين من عشاق الفن الإسلامى لا يتأخرو عن مد يد المساعدة إليها وسيكون لنا عودة لهذا الجامع فنذكر ما مر به من حوادث الزمن .

« وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

إن الطوائف الأخرى تقيم أعيادها واجتماعاتها فى معابدها ونحن معاشر المسلمين ، فى حاجة للرجوع إلى المساجد فى هذ المناسبات ، وليس فى ذلك من حرج ، لأن ذلك كان سنة مر تقدمنا — ذكر ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ف تاريخه عن حوادث رمضان سنة ٦٧٧ أنه بمناسبة مرور سنة على وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس « عملت عدة أعزية بمدرس

الإمام الشافعي رضي الله عنه وجامع أحمد بن طولون والجامع الظاهري بالحسينية[١] والمدرسة الظاهرية[٢] والمدرسة الصالحية النجمية[٣] ودار الحديث الكاملية[٤] بين القصرين والخانقاه الصلاحية برحبة باب العيد والجامع الحاكمي داخل القاهرة المحروسة وذكر الخانات التي قرأت والخيرات التي عملت، وفي ذلك دليل على أن المآتم كانت تقام بالمساجد وكان الناس يجلسون للعزاء، وكانت تقام فيها صلاة الغائب وينادى بالنعي من المآذن.

فهل هناك ما يمنع من الأخذ مرة أخرى بتلك السنن، وأن يجتمع الناس بالمساجد الجامعة في أحيائهم لذكرى المولد النبوي، للاحتفال بأعيادهم؟ لا أجد نصاً واحداً يمنع الأخذ بذلك، بل قد رأيت طول القرون الماضية مايؤكد المنزلة التي كانت للمساجد الجامعة في مصر وغيرها.

ذكر صاحب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، حديثاً طويلا عن الخطباء، الذين أمرهم السلطان الغوري أن يخطبوا بين يديه في أيام الجمع، يفهم منه الاهتمام الكبير الذي كانت توليه الدولة المصرية في عهدها الإسلامي العربي لشؤون الخطابة في المساجد الجامعة. ولذلك لا نختلف مع نظرية حمد الله يحيى بك في شيء بل إن الفكرة تستند على ماض طويل، تحتاج أولا إلى من يحييها ثم من يجعلها ملائمة لتطور الزمن. نقول بكل صراحة: إن مظاهر الضعف والتفكك والتدهور والأخلاق البادية في صفوف المسلمين المعاصرين، ترجع إلى اعتكاف علماء الدين، وإلى اتخاذهم المكاتب والحجرات بدل المساجد، ولو نزلوا إلى الشعب الإسلامي كما نزل الرسول وأصحابه والتابعون وتابعو التابعين، وتولوا الإمامة والخطابة بأنفسهم، لتحلقوا حول المساجد هالة من التقديس والاحترام، ولأصبحت المساجد الجامعة في قاهرة المعز لدين الله، عامرة آهلة بألوف المصلين من عباد الله.

إن المساجد الجامعة بيوت الله، يجب أن يعمل علماء الدين على اجتذاب الناس إليها، وأن يربى الطفل والطفلة والشاب والفتاة والنساء والرجال على المداومة على الذهاب إليها، وأن يكون الإمام والخطيب رجل دعوة وإيمان وعلم وجرأة، عالماً بشؤون الدنيا بقدر علمه بشؤون الدين، أعظم صفة لديه «الابتكار» وأن يفيض قلبه بمحبة الشعب ودعوة الناس وخدمتهم وإقالة عثرتهم، فيقول للحيارى تعالوا: هذا هو بيت الله وهذا هو دينه وهذه شريعته وهذه سيرة رسوله، «وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم».

تمر الأيام سريعاً ويتطور العالم ويسير ويواجه أزمة وراء أزمة، فهل نعيش لنرى ذلك اليوم في مساجد الله؟ وهل سيسمع لنا نداء؟ أم سيخرج من صفوفنا نحن الذين لم تلبس العمامة من يقوم بهذا الغرض الاجتماعي ويدعو لهداية الله ويحمل الأمانة التي تخلى عنها رجال الدين؟

هذه أسئلة يجيب عنها المستقبل...

أحمد رمزي

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

(١) الآن حديقة عامة.
(٢) زالت للأسف مع الوجود.
(٣) الباقي منها قليل وأرضها عمارات ومساكن.
(٤) الباقي منها الواجهة فقط.

إدارة البلديات — طرابلس

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٧ مارس سنة ١٩٤٦.

عن مناقصة رصف أفاريز بمدينة سوهاج وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٥٠٠ مليم خلاف مصاريف البريد. ٤٩٧٤

نشر بإعلان ٤٩٧٤ بالعدد ٦٦١ وتطلب المواصفات بظهر دفع مبلغ جنيه، ٥٠٠ مليم والصواب ٥٠٠ مليم فقط؟